الفصل الثاني

كَمَالات الله تَعَالَىٰ

لقد قرر علماء التوحيد من قديم وجوبَ وصف الله تعالى إجمالاً ـ دون تحديد ـ بكل صفة من صفات الكمال، وتنزيهه سبحانه عن كل صفة من صفات العيب والنقصان، فقالوا: الله تعالى خالق كل شيء، من الذوات والصفات والأفعال، فهو سبحانه موصوف بكل صفة من صفات الكمال، ومنزه عن كل صفة من صفات النقصان، وقالوا: إن العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعدل، والرحمة، والحكمة، الخ من صفات الكمال في العبد، فيجب أن يكون الله تعالى متصفاً بها، إذ كيف يكون منعماً بنعمة القدرة والعلم وأمثالهما على العبد، ولا يكون هو سبحانه متصفاً بها؟ فيكون فقيراً ناقصاً، ثم كيف يهب تلك النعم على من شاء من عباده ثم لا تكون هي له من قبل؟ وفاقد الشيء لا يعطيه؟.

ألا إن صفات الله تعالى هذه ـ وسائر صفاته سبحانه ـ كاملة تامة، ما سبقها عدم، ولا طرأ عليها نقص، ولا يعرض لها خلل، ولا نقص، وزوال وفناء بحال من الأحوال، وصفات العبد خلق من الله تعالى، لم تكن فأوجدها الله تعالى، كانت ناقصة فأكمل الله منها ما شاء، ثم يعرض لها

على الزمان النقص والخلل، ثم يكون الزوال والفناء وفق مشيئة الله وإرادته.

وقرروا كذلك وجوب وصف الله تعالى تفصيلاً ـ تحديداً ـ بكل ما وصف به نفسه كما وصف به نفسه، بعيداً عن التشبيه والتعطيل، والله تعالى وحده يعلم كنه ذاته وصفاته.

وَحَدَانِيَّـة الله تعالىٰ

الله تعالى واحد لا شريك له، لا قرين له ولا صديق، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد﴾[1].

لقد دعت رسل الله تعالى جميعاً إلى الإيمان بالله تعالى، وإفراده سبحانه بالعبودية والطاعة، كإفراده سبحانه بالربوبية والإيجاد، فقال الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيْ إِلَيْهِ أَنَّه لا إله إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُوْنِ﴾[2]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيْمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِيْنُ القَيِّمَةِ﴾[3].

وحدانيـة الله أمر مقرر في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، على تصريف في الآيات وتنويع فيها.

قال الله تعالى مقرراً وجـوب اليقين بوحدانية الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إله إِلَّا الله﴾[4].

---

(١) الإخلاص : ٣ و٤.
(٢) الأنبيـاء : ٢٥.
(٣) البينـة : ٥.
(٤) محمد : ١٩.

وقال سبحانه مقرراً منع قيام الكون أو انتظامه واستمراره لو كان معه سبحانه سواه: ﴿لَوْ كَانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ إلاّ الله لَفَسَدَتَا﴾(١).

وقال سبحانه مقرراً امتناع بقاء الإله على تدبير الكون لو كان معه آلهة: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذاً لابْتَغَوا إلى ذِيْ العَرْشِ سبيلاً. سُبْحانَهُ وَتَعالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيْراً﴾(٢).

وقال سبحانه مقرراً ما يشهد به العلم والواقع، أنه ليس ثمة إله خالق سوى الله، فكيف يعبد مخلوق مخلوقاً مثله، ويدع عبادة الخالق سبحانه وحده، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ﴾(٣)، وقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا شُرَكَاء خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عليهم قُل اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ. . . .﴾(٤).

وقال سبحانه مقرراً افتقار كل شيء إليه سبحانه، وغناه سبحانه عن كل شيء، وذلك ـ لعمر الله ـ دليل الألوهية الحقة، قال سبحانه: ﴿. . . وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَم﴾(٥)، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونَ. مَا أُرِيْدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُون. إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المتِيْن﴾(٦).

وقال سبحانه مقرراً إيجاده هو لهذا الكون، وحفظه إياه من الفساد والزوال، إلى حين يشاء جل جلاله، قال سبحانه: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ

---

(١) الأنبياء: ٢٢.
(٢) الإسراء: ٤٢ و٤٣.
(٣) النحل: ١٧.
(٤) الرعد: ١٦.
(٥) الأنعام: ١٤.
(٦) الطور: ٥٦، ٥٧، ٥٨.

شيء﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُوْلا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِه..﴾[2].

وقال سبحانه مقرراً كمال سلطانه على الكون وأهله، بحيث لا يفوته فائت من خلقه، فقال: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِين في الأرض ولا في السماءِ﴾[3]، وقال: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهم لا يُعْجِزُون﴾[4].

وفيما ذكر من الآيات الكريمة غناء عن ذكر الأحاديث الشريفة التي تقرر وحدانية الله سبحانه، ووجوب إفراده سبحانه بالتوجه إليه والعبادة له.

إن أمر وحدانية الله تعالى مقرر في كل شيء.

● إن الخبر الصادق ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيْثاً﴾[5] يقرر وحدانية الله تعالى، فمنذ أقدم ما عرف البشر من عقائد، عرف فيها الوحدانية أولاً، ثم دخل عليها ما دخل من شرك ووثنية، حتى بلغت آلهة اليونان أكثر من ألف إله باطل، فإذا قال الله تعالى، ثم قال صفوة الله من خلقه، والعقلاء والحكماء قديماً وحديثاً: إن الله تعالى واحد، فأحرِ به أن يكون صدقاً وحقاً، فليس ثمة من هو أصدق من الله حديثاً، وليس في البشر من هو أصدق من صفوة الله من خلقه حديثاً. والعقلاءُ والحكماء قدوة في الناس، وأسوة في هذا الأمر خاصة.

---

(١) الزمر : ٦٢.
(٢) فاطر : ٤١.
(٣) العنكبوت : ٢٢.
(٤) الأنفال : ٥٩.
(٥) النساء : ٨٧.

● إن البداهة والضرورة تقرر وحدانية الله تعالى، فما يرى الإنسان مصنوعاً إلا ويبدر إلى ذهنه أن صانعه واحد، ولقد نطقت بهذه البداهة ألسنة عباد الأوثان أمام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، في فترة من فترات صفاء النفس، وحكم العقل: ﴿. . فَرَجَعُوا إلى أَنْفُسِهِمْ فقالوْا إنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُون ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِم لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ ينطقون﴾[1].

● إن الفكر النير، والمنطق السليم، يقرر وحدانية الله تعالى، ويكفي لتقرير هذا المعنى، ما أوردنا من الآيات الشريفة، إن الفكر لا يرتضي أن يجتمع سلطانان بله حاكمين على جماعة، بل ولا مدرسان في فصل واحد، ولا مديران لمدرسة، إنه يحكم بأن النظام سيختل، والفساد سيستشري، فكيف يكون للكون أكثر من إله، وشأن الألوهية السلطان والانفراد بالأمر، واستمع إلى قوله تعالى في هذا المعنى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَايَقُولُوْنَ إذاً لابْتَغَوا إلى ذي العَرْشِ سَبِيْلاً سُبْحَانَهُ وَتَعالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيْراً. ﴾[2].

● إن العلم الكوني يقرر وحدانية الله تعالى، قال الأستاذ عبد الرزاق نوفل: والمتدبر للحياة بكل ما فيها، يجد الأدلة العلمية والمنطقية على وحدانية الله سبحانه وتعالى، فكل الكائنات الحية أصلها خلية حية واحدة، وكل المواد الأخرى أصلها ذرة واحدة، وفي داخل الخلايا الحية، مكونات واحدة، من أصل واحد، وكل ما في الذرات كهارب من أصل واحد، فوحدة الخلق، ووحدة الأصل، إنما تؤكد وحدة الخالق.

---

(١) الأنبياء: ٦٤ و٦٥.

(٢) الإسـراء: ٤٢ و٤٣.

وتنقسم الخلية الحية، ـ كل خلية وأي خلية ـ بطريقة واحدة، وبشكل واحد، وتتكاثر الأحياء بطريقة واحدة، فالإنسان كله منذ آدم (عليه السلام) حتى نهاية البشر، تناسلهم بطريقة واحدة، أينما كانوا في مشرق الأرض ومغربها، في قديم الزمان أو حديثه، والطيور والنباتات لم يحدث أن شذ في تناسلها أو تكاثرها مجرد فرد واحد، ألا يشير ذلك إلى وحدة الخالق؟ ووصل العلماء إلى حقيقة علمية مؤكدة، وهي تناسق الحركة، وتماثلها في كل الكون، فإن الكهارب داخل الذرة، نسبتها إلى الفراغ الذي في الذرة، كنسبة أفراد مجموعة الشمس إليها، ونسبة المجموعة الشمسية إلى غيرها، وهكذا تستمر سلسلة من نسب متساوية ومتناسقة لا تختلف، بل إن سرعة دوران هذه الكهارب حول مركزها وحول بعضها بالنسبة لحجمها تعادل تماماً سرعة دوران المجموعات الكونيـة.

إن هذه الوحدة في كل الخلق، والتناسق والتكامل، إنما تؤكد وحدة الخالق جل شأنه.

وبتحليل مكونات المجموعة الشمسية، وُجد أنها كلها تتكون من عناصر واحدة، وبتحليل جسد الإنسان والحيوان والنبات وجد أنها كلها أيضاً تتكون من عناصر واحدة.

إن الوحدة في الخلق هي الصفة الأولى الأساسية التي تسير إليها الحياة في كل صورها.[1].

---

(١) «أسئلة حرجة» ص ٢٦، وهذا الكتاب ـ على فائدته ـ يحوي أشياء خطيرة «أخطرها ما يعد مفكراً في الإسلام» وهو نفي ما تواتر من نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، وقد حكم تقليداً لشلتوت والقاديانية بوضع أحاديث نزول عيسى عليه =

ملاحظـــــة :

يحلو لبعضهم جهلاً وغروراً، أن يزعم بأن مع الله تعالى شريكاً، أو أنه سبحانه وتعالى اتخذ صاحبة أو ولداً، فيزعمون أن رسولاً قال لقومه أبي الذي في السماء.

إن الواجب في ذلك الكلام، وأمثاله، أن يعرض على منصة التحقيق، فهل كان ذلك حقاً كلام رسول من رسل الله؟.

لقد قرأنا معاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيه أنه لا إله إلَّا أنا فاعبدون﴾[1]، وقال الله تعالى على لسان عيسى صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم: ﴿ما قلت لهم إلَّا ما أمرتني به أَنِ اعبُدُوا اللهَ رَبِّي ورَبَّكُم﴾[2]، وقال لقومه حين حدثهم وهو في المهد: ﴿إِنِّي عبدُ الله آتاني الكتابَ وجعلني نبيًّا وجعلني مباركاً أينما كُنْتُ وَأَوصَانِي بالصَّلاة والزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بوالدتي..﴾[3]. والكتاب الذي نقل ذلك الكلام ليس كتاب الله قطعاً، بل هو كتابات معاصرين لرسول، أو غير معاصرين من حفظهم، وما نُقل إليهم من ذلك الكتاب الذي ضاعت أصوله، لذا تعددت نسخه، وتبدلت، وتعارضت أحياناً، وما أُنزل ذلك الكتاب ـ كسائر الكتب ـ إلا مرة واحدة، والله أعلم.

= السلام وهي تصل إلى (١٠٣) نص ما بين حديث وأثر. وانظر (التصريح بما تواتر في نزول المسيح).

(١) الأنبياء : ٢٥.

(٢) المائدة : ١١٧.

(٣) مريم : ٣٠ و ٣١ و٣٢.

وقال عبد الله بن محمد بن السِّيد البطلوسي مؤلف أسباب اختلاف المسلمين المتوفى سنة ٥٢١ :

إلهي إني شاكر لك حامد
وإني لساع في رضاك وجاهد
وإنك مهما زلّت النعل بالفتى
على العائد الأواب بالعفو عائد
تباعدت مجداً وأدّنت تعطفا
وحلما فأنت المُدّني المتباعد
وما لي على شيء سواك معوّل
إذا دهمتني المعضلات الشدائد
أغيرك أدعو لي إلهاً وخالقاً
وقد أوضح البرهان أنك واحد
وقدْ ما دعا قوم سواك فلم يقم
على ذاك برهان ولا لاح شاهد
وبالفلك الدوّار قد ضل معشر
وللنيرات السبع داع وساجد
وللعقل عباد وللنفس شيعة
وكلهمُ عن منهج الحق حائد
وكيف يضل القصد ذو العلم والنُهي
ونهج الهدى من كان نحوك قاصد
وهل في التي طاعوا لها وتعبدوا
لأمرك عاصي أو لحقك جاحد

وهـل يوجـد المعلول من غيـر علة
إذا صح فكراً أو رأى الرشد راشد
وهـل غبت عن شيء فينكـر منكـر
وجـودك أم لم تبدُ منـك الشواهـد
وفي كـل معبـود سـواك دلائـل
من الصنع تُنبي أنـه لـك عابـد
وكـل وجـودٍ من وجـودك كـائن
فواجد أضـاف الورى لـك واجد[1]
سـرت منك فيهـا وحدة لـو منعتها
لأصبحـت الأشيـاء وهـي بـوائـد
وكم لك في خلق الورى من دلائل
يـراهـا الفتى في نفسـه ويشاهـد
كفى مكـذبا للجاحـديك نفـوسُهم
تخـاصمهم إن انكروا وتعانـد[2]

آيات الله في الكـون: / للشيخ أحمد عبد الرحيم السايح

١ ـ لله فـي الآفـاق آيـات
لعـلَّ أقلهـا هـو مـا إليـه هَـداكـا
٢ ـ ولعل ما في النفس من آياته
عجب عجـاب لـو تـرى عيناكـا

---

(١) فالله تعالى خالق كل شيء، وفي كل شيء آية تدل على الله تعالى وتهدي إليه.
(٢) نسيم الرياض في أخبار القاصي عياض.

٣ ــ والكون مشحون بأسرار إذا
حاولتَ تفسيراً لها أعياكا

٤ ــ قل للطبيب تخطفته يد الردى
يا شافي الأمراض من أردكا

٥ ــ قل للمريض نجا وعُوفي بعدما
عجزت فنون الطب من عافاكا

٦ ــ قل للبصير وكان يحفر حُفرة
فهوى بها من ذا الذي أهواكا

٧ ــ بل سائِل الأعمى خطا بين الزحام
بلا اصطدام من يعود خطاكا

٨ ــ قل للوليد بكى وأجهش بالبُكا
لدى الولادة ما الذي أبكاكا

٩ ــ وإذا ترى الثعبان ينفث سَمّه
فاسأله من ذا بالسموم حشاكا

١٠ ــ واسأل بطون النحل كيف تعاطرت
شهداً وقل للشهد من جلاكا

١١ ــ بل سائل اللبن المصفى كان بين دم وفرث ما الذي صفاكا

١٢ ــ وإذا رأيت الحيَّ يخرج من حنا
يا ميت فاسأله من أحياكا

١٣ ــ وإذا ترى ابن السود أبيض ناصعاً
فاسأله من أين البياض اتاكا

١٤ ــ وإذا ترى ابن الأبيض فاحما
فاسأله من ذا بالسواد طلاكا

١٥ ــ قل للهواء تحسّه الأيدي ويخفى
عن عيون الناس من أخفاكا
١٦ ــ قل للنبات يجفّ بعد تعهّد
ورعاية من بالجفاف رماكا
١٧ ــ وإذا رأيت النبت في الصحراءير
بو وحده فإسأله من أرباكا
١٨ ــ وإذا رأيت البدر يسري ناشراً
أنواره فاسأله من أسراكا
١٩ ــ واسأل شعاع الشمس يدنو وهي
أبعد كل شيء ما الذي أدناكا
٢٠ ــ قل للمرير من الثمار من الذي
بالمر من دون الثمار غذاكا
٢١ ــ وإذا رأيت النخل مشقوق النَّوى
فاسأله من يا نخل شق نواكا
٢٢ ــ وإذا رأيت النار شبَّ لهيبها
فاسأل لهيب النار من أوراكا
٢٣ ــ وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً
قمم السحاب فسله من أرساكا
٢٤ ــ وإذا رأيت النهر بالعذب الزلا
ل جرى فسله من الذي أجراكا
٢٥ ــ وإذا رأيت الليل يغشى داجيا
فاسأله من يا ليل: حاك دجاكا

٢٦ ــ وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحكاً
فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا
٢٧ ــ هذي عجائب طالما أخذت بها
عيناك وانفتحت بها أذناكا
والله في كل العجائب ماثل
إن لم تكن لتراه فهو يراكا اهـ

* . * . * . * . *

● يزعم بعضهم ـ جهلاً وغروراً ـ أن الله تعالى يقرر تعدد الخالقين، إنه يقول: ﴿إِنَّا كلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بَقَدَرٍ﴾(١)، وغفلوا ان الله تعالى يصف نفسه بالعظمة، ولا تكون لغيره سبحانه فيعبر بنُونِ الجماعة، ومع ذلك فقد جاء الخلق منسوباً إلى الله تعالى بصفة الإفراد، لتفقيء في أعين المكذبين الحصرم والمرار، قال الله تعالى: ﴿اللهُ خالقُ كُلِّ شيء﴾(٢)، وقال: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾(٣)، وقال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إله إلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكرِي﴾(٤).

أسبابُ الإشراك بالله تعالـــى

فإذا كان أمر وحدانية الله تعالى في هذا الظهور، الذي يفوق ظهور

---

(١) القمر : ٤٩.
(٢) الزمـر : ٦٢
(٣) يس: ٨٢
(٤) طه : ١٤.

الشمس في رابعة النهار، فما الذي يدفع بعضهم إلى الإشراك بالله تعالى أو الإلحاد؟

هي أسباب عديدة يمكن حصرها فيما يلي:

١ ــ التقليد الأعمى للآباء، والموروث من التقاليد والعادات.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيْلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالوا بَلْ نَتَّبِع ما أَلْفَيْنا عَلَيهِ آباءَنا أَوَلَو كانَ آباؤُهُم لا يَعقلون شَيْئاً وَلَا يَهتَدُونَ﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإِنَّا على آثارِهِم مُقْتَدُون﴾[2].

حين أسلم عمرو بعد أخيه خالد رضي الله تعالى عنهما، قال فيهما أبان أخوهما ـ قبل أن يُسلم ـ يندد بهما، ويذكرهما بأبيهما الذي هلك بمكان يقال له: الظريبة:

أطاعا معاً أمرَ النساء فأصبحا
يعينان من أعدائنا من يكايد

فقال عمرو يجيبه:

أخي ما أخي شاتم أنا عرضه
ولا هو عن سوء المقالة يقصر
يقول إذا اشتد عليه أموره
ألا ليت مَيْتاً بالظريبة ينشر
فدع عنك مَيْتاً قد مضى لسبيله
وأقبل على الحق الذي هو أظهر[3]

---

(١) البقرة: ١٧٠.

(٢) الزخرف: ٢٣.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر: ٢ ـ ٥٣١.

وما أحسن قول أحدهم في هذا التقليد الأعمى المجنون:

عُمي القلوب عموا عن كل فائدة
لأنهم كفروا بالله تقليداً.

ولا يظن القارىء الكريم أن أصحاب التقليد الأعمى قد ذهبوا مع أهل الجاهلية، لا.. إن (١٢٠٠) ألف ومئتي مليون من البشر في الهند، والصين، واليابان، وغيرها يعبدون الأصنام، ولا يهتدون إلى عبادة الله تعالى وحده.

إنهم أقوام تعلموا، ودرسوا، وتثقفوا، ومع ذلك فهم يصرون على ذلك التقليد الأعمى المجنون لآبائهم الوثنيين، أو يتظاهرون بذلك.

٢ ـ الحسد والبغي.

ولقد حال الحسد بين بني إسرائيل والإيمان برسول الله ﷺ، حين بُعث، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ.﴾[1].

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أنه حُدِّث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شَريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زُهرة، خرجوا ليلة، ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وهو لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت

---

(١) البقرة ٨٩.

الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شَريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا الحنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حَلَفتَ به كذلك.

قال ثم خرج من عنده، حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه. قال، فقام عنه الأخنس وتركه[1].

٣ ـ إيثار عاجل الشهوات والمصالح:

كان رسول الله ﷺ في مكة المكرمة، حين جاء إليها الشاعر أبو بصير (الأعشى)، وكان مشركو مكة قد جعلوا على أبوابها رجالاً ينفرونهم من

---

(١) سيرة ابن هشام، تحقيق السقا وإخوانه: ١ / ٣١٥.

رسول الله ﷺ ودعوته، فلما جاء هذا الشاعر، قال له أولئك: إن محمداً (ﷺ) يحرم الزنى. فقال: قد كبرت سني، فما بقي لي مطمع في الزنا. فقالوا له: إنه يحرم الخمر، فقال: أما هذه فلا... فقال: (المسكين) يعود هذا العام إلى بلاده نجد، فيشرب الخمر ما استطاع، فإذا جاء الموسم القادم قدم مكة، وقد ارتوى من الخمر، فيسلم فيمتنع عن الخمر، فوقصته الناقة في طريق عودته إلى بلاده، فسبقت به إلى جهنم ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

وكم من الناس تمرغوا في المنكرات، واستمرؤوا الفواحش والموبقات، فهم يصرون على دعوى الشرك أو الإلحاد، ليستمروا في غوايتهم، دون منغص من دين يحرم ما يحبونه، أو إله يغضب مما يأتونه، ويعاقب على ما يفعلونه، حتى... يبغتهم هادم اللذات، وقاطع الشهوات، فيسبق بهم إلى النار، وبئس المهاد.

٤ ـ الجهل القائم على إهمال العقل وعلومه:

يقول العلم: لو كانت قشرة الأرض أكثر سمكاً بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالي لما وجد الأوكسجين، إذ أن القشرة الأرضية ستمتص حينئذ الأوكسجين، وبالتالي تستحيل الحياة الحيوانية، وكذلك لو كانت البحار أعمق بضعة أقدام أكثر من العمق الحالي لانجذب ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين، حتى بمتصهما الماء، ولاستحال وجود النباتات على الأرض فضلاً عن الحياة. ولو كان الغلاف الهوائي للأرض ألطف مما هو عليه الآن لاخترقت النيازك كل يوم غلاف الأرض الخارجي، ولرأيناها

---

(١) انظر «سيرة ابن هشام».

مضيئة بالليل، ولسقطت على كل بقعة من الأرض وأحرقتها، فهذه النيازك تواصل رحلتها بسرعة أربعين ميلاً في الثانية الواحدة، ونتيجة لهذه السرعة العظيمة فإنها ستحرق كل شيء يمكن احتراقه على الأرض، حتى تصبح الأرض غرباالاً في وقت ليس ببعيد.

فلو لا أن غلاف الأرض الهوائي يقيناً من هذه الشهب، لاحترقنا، فإن سرعتها أكثر من سرعة البندقية بـ (٩٠) مرة، كما أن حرارتها الشديدة كافية لإهلاك كل شيء بما فيه الإنسان، فنحن إذن في حماية هذا الغلاف الكثيف الموزون الذي لا تخترقه الأشعة الشمسية ذات الأهمية الكيماوية إلا بالقدر الذي يكفي لحياة النبات، وإيجاد الفيتامينات، والقضاء على الجراثيم الضارة وما إلى ذلك.

● إن الأرض تتم دورة واحدة حول محورها في كل أربع وعشرين ساعة، ومعنى ذلك أنها تسير حول محورها بسرعة ألف ميل في الساعة، فإذا فرضنا أن هذه السرعة انخفضت إلى مئتي ميل في الساعة لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشر مرات بالنسبة إلى ما هي عليه الآن، ويترتب على ذلك أن تحرق الشمس ـ لشدة حرارتها ـ كل شيء فوق الأرض، وما بقي بعد ذلك ستقضي عليه البرودة الشديدة في الليل، إننا نتحير إذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التلفون، ونتحير إذا وجدنا أن مكالمة من لندن إلى ملبورن باستراليا، تتم في بضع ثوان، فإذا كان تعقيد نظام أسلاك الهاتف يوقعنا في هذه الحيرة، فما بالنا بنظامنا العصبي، وهو أوسع من هذا النظام، وأشد تعقيداً؟! إن ملايين الأخبار تجري على أسلاك نظامنا العصبي من جانب إلى آخر ليل نهار، وهذه الأخبار هي التي توجه القلب في تدفقها، وفي حركتها، وتتحكم في حركات الأعضاء المختلفة، وتتحكم في

الحركات الرئوية، ولو لم يكن هذا النظام موجوداً في أجسامنا، لصارت الأجسام تلفيقاً لأشياء مبعثرة، تسلك كل منها مسلكها الخاص، ومركز هذا النظام للمواصلات مخ الإنسان، وفي هذا المخ يوجد ألف مليون خلية عصبية، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر في سائر الجسم، وتسمى هذه الأسلاك الأنسجة العصبية، وفي هذه الأنسجة يجري نظام استقبال وإرسال للأخبار، بسرعة سبعين ميلاً في الساعة، وبواسطة هذه الأنسجة نتذوق، ونسمع، ونرى، ونباشر سائر أعمالنا، بل إن هنالك ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة، وتسمى (TASTEBUDS) ولكل منها مسلك عصبي خاص، متصل بالمخ، وبواسطة هذه الشعيرات يُحس بالمذاقات المختلفة، وتوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية، ومن خلال نظام معقد يسري من هذه الخلايا يسمع مخنا، وفي كل عين مئة وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتقطة للضوء، وتقوم بمهمة إرسال هذه المجموعة التصويرية إلى المخ، وهناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد جلدنا فإذا قربنا إلى الجلد شيئاً حاراً، فإن ثلاثين ألفاً من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية، وترسلها فوراً إلى المخ، وإذاقربنا إلى الجلد شيئاً بارداً فإن ربع مليون من الخلايا التي تلتقط الأشياء الباردة تحس به، وعندئذ يمتلىء المخ بأسرها، ويرتعد الجسم، وتتسع الشرايين الجلدية، فيسرع مزيد من الدم إليها، ويزودها بالحرارة، وإذا أحست هذه الخلايا بحرارة شديدة، فإن مخابرات الحرارة توصلها إلى الدماغ، وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية تلقائياً عرقاً بارداً إلى خارج الجسم.

والنظام العصبي يشتمل على عدة فروع، منها الفرع المتحرك ذاتياً، ويقوم بأعمال تحدث ذاتياً في الجسم، كعملية الهضم، والتنفس،

وحركات القلب، ويندرج تحت هذا الفرع نظامان:

أحدهما النظام الخالق للحركة، والآخر هو المانع لها، وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع، ولو ترك الأمر للنظام الأول لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه، ولو سيطر النظام الثاني لتوقفت حركة القلب توقفاً تاماً.

وأقسام هذين النظامين تباشر أعمالها في دقة فائقة، وفي توازن عام، ولكن هنالك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين، فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب إلى قوة مسعفة، وعندئذ تزيد سرعة عمليات القلب، والرئة، والنظام الثاني يتغلب عند النوم، فيسود السكون جميع الحركات الجسميـة...[1].

إن العلم الذي يقرر هذه الحقائق وأمثالها، لا يعرف تفسيراً لها وتعليلاً، وإنما يعرفه المؤمن من خلال قول الله تعالى للناس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْه﴾[2] ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾[3].

إن القول بأن هذا كله إنما حدث صدفة، وبدون خالقٍ عليمٍ حكيمٍ، جنونٌ، وصممٌ وعمى: ﴿وَقَالُوْا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾[4].

---

(١) من كتاب «الإسلام يتحدى» للأستاذ وحيد الدين خان مفرقاً.
(٢) الجاثيـة : ١٣.
(٣) البقـرة : ٢٩.
(٤) الملك : ١٠.

٥ ـ التربيـة الضالـة المنحرفـة:

قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[١].

وقد تستمر تلك التربية الضالة بصاحبها حتى يموت عليها، أغلف القلب، أعمى، أصم، أبكم، فيكون من أهل النار، وما أكثر ما يفسد عقول الناشئة وإيمانهم زخارف أقوال بعض المعلمين والكتّاب، والمتجبرين. وقد تُهيأ لصاحب تلك التربية الضالة فرصة يبصر فيها خلال ما كان عليه، فيعود إلى الفطرة، إلى الإيمان بالله تعالى، وتوحيده كما سمعنا، ونسمع عن مشركين ملاحدة عادوا إلى الإيمان، ومنهم من عاد إلى الإسلام الحق، والحمد لله.

هذه ابنة ستالين (سفيتلانا) ولدت في بيت شيوعي، أبوها ذلك الوحش ـ كما يصفه كاتب شيوعي يوغوسلافي، كان من أحبابه ـ الذي قتل الألوف من مخالفيه، وأقام على حكم روسيا في شدة وبطش نحواً من ثلاثين عاماً، وأمها روزا اليهودية، ومع ذلك فقد آمنت سفيتلانا بالله تعالى، ثم أعلنت إيمانها، حين أمكنتها فرصة الخروج من بلادها، قالت: غير أني بعد أن شببت عن الطوق، دخل في قلبي أنه مستحيل أن يعيش الإنسان دون الشعور ولو في قلبه بوجود إله يحيي ويميت، ويهيمن على كل شيء في الوجود، ولقد توصلت إلى هذا العقيدة بدون أي إرشاد، أو عظة من أي شخص، ولكن هذا في حد ذاته كان تغيراً عظيماً في فكري، مما دفعني إلى التقليل من أهمية المبادىء الشيوعية الملحدة، ومن ثم

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

فَقَدتْ هذه التعاليمُ قوتَها في نفسي[1].

أما أوبارين رئيس معهد الكيمياء الحيوية في روسيا، الذي ظل (٣٧) عاماً يبحث عن أصل الحياة، وما إذا كان من الممكن إيجاد الخلية الأولى عن طريق تفاعل كيماوي، فقد قال: إن الحياة لا يمكن أن تبدأ من العدم، أو أن تتوالد من التفاعل الكيميائي، والتوالد الذاتي، وإن العلم لا يمكن أن يخوض فيما وراء حدود المادة.

هذا الرجل حين قيل له: فماذا تقول في هذا الوجود القائم؟ قال كلاماً يردد فيه صوت سيده، مما لا علاقة له بالعلم والعقل؟ قال: لعل الحياة جاءت إلى الأرض من كواكب أخرى، ثم ترعرعت في هذه الأرض حتى كان فيها الإنسان! ما أحراه أن يقال فيه:[2]

فـإن كنت لا تـدري فتلك مصيبـة
أو كنت تـدري فـالمصيبـة أعـظم

إن الجنون فنون، وقد يظهر على ألسنـة أقوام يسمون علماء كيمياء!

فإذا سمعت هكسلي يقول: لو جلست ستة من القرود على آلة كاتبة، وظلت تضرب على حروفها ملايين السنين، فلا يستبعد أن تجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة عمليات عمياء ظلت تدور في المادة لبلايين السنين.

---

(١) أركان الإيمان ص ١١٣.

(٢) انظر: كتاب «الله جل جلاله» للشيخ سعيد حوى، و«الجانب العاطفي في الإسلام» للشيخ محمد الغزالي.

فلا تستهزىء به، ولا تضحك عليه، ولكن قل: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه، ثم دعه، وخذ بقول من قال: إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي، شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة. وذلك محال عادة.

التوسل إلى الله:

فإن قيل: أليس التوسل إلى الله تعالى بشيء، أو بأحدٍ، شركاً به سبحانه؟ أجيب: لا، لا تنافي بين توحيد الله تعالى والتوسل إليه سبحانه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَذِينَ آمَنُوا اتقوا الله وابْتَغُوا إِلَيْه الوَسِيْلَة﴾[1]. إن التوسل إلى الله يعني: التقرب إلى الله بما يصح التَقرب به إليه، طلباً للقرب منه سبحانه، والدرجة عنده، أو لقضاء حاجة بحصول نفع، أو دفع ضرر.

صـــوره:

١ ــ التوســل إلى الله تعالى باسم من أسمائه سبحانه، أو صفة من صفاتــه:

سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلاَّ أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى»[2].

---

(١) المائـدة: ٣٥.

(٢) رواه الترمذي، وحسنه أبو داود، وإسناده صحيح.

٢ ــ التوســل إليه سبحانه بطاعة من الطاعات: كالصــلاة، والصيام، والحجّ، والجهاد وقراءة القرآن، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا تُرد دعوتهم، الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»[1].

٣ ــ التوسل إليه سبحانه بعمل من الأعمال الصالحــة:

كتوسل الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار بأعمالهم الصالحة الخالصة لوجهه سبحانه، من بر الوالدين، والتعفف عن الزنا، وإعطاء الأجير حق أجره، حتى كشف الله تعالى عنهم الغمة، وانزاحت الصخرة عن فم الغار، فخرجوا يمشون. والخبر في البخاري.

٤ ــ التوســل برسول الله ﷺ:

عن عثمان بن حُنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني قال: «إن شئت دعوتُ، وإن شئت صبرتَ، فهو خير لك» قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ، فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي لي فشفعه فيّ»[2].

ولقد أخطأ من زعم أن رسول الله ﷺ قد دعا للرجل، فاستفاد الرجل

---

(١) الترمــذي.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، ورواه النسائي في عمل اليوم والليلة، والحاكم وصححه وسلمه الذهبي، وابن ماجة، وابن السني وغيرهم.

من دعاء رسول الله ﷺ له، وأنه لا يتوسل به بعد انتقاله وموته. والجواب عليه بأمور:

١ ــ ظاهر الحديث فليس فيه أن رسول الله ﷺ دعا للرجل بشيء، فذلك التأويل دعوى عليه ﷺ دون برهان.

٢ ــ الرواية التالية تبين أن المراد دعاء الرجل بنفسه متوسلاً برسول الله ﷺ لا دعاء الرسول أو غيره له. عن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة، فكان عثمان لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف، فشكا إليه ذلك، فقال له عثمان بن حنيف: ائتِ الميضأة، فتوضأ، ثم ائْتِ المسجد، فصل ركعتين ثم قل: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فتقضي حاجتي، واذكر حاجتك، ثم رُح حتى أروح، فانطلق الرجل، وصنع ذلك، ثم أتى باب عثمان بن عفان، فجاء البواب، فأخذه بيده، وأدخله على عثمان، فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: انظر ما كانت لك من حاجة، ثم إن الرجل خرج من عنده، فلقي عثمانِ بن حُنيف، فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي، ولا يلتفت إليَّ حتى كلمته، فقال له عثمان بن حنيف: ما كلمته، ولكني سمعت رسول الله ﷺ وجاءه رجل ضرير، فشكا له ذهاب بصره، وذكر الحديث وفيه: (قال عثمان: فوالله ما تفرقنا، ولا طال بنا الحديث، حتى دخل الرجل، وكأنه لم يكن فيه ضير قط)[1].

٣ ــ المؤمن يعلم أن حالته ﷺ في حياته عند الله كحالته بعد موته فهو

---

(١) رواه الحاكم والطبراني في «معجمه الكبير».

على كل حال لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً إلا بإذن الله تعالى، فإباحة التوسل به حال حياته ومنع ذلك بعد انتقاله فيه شبهة اعتقادية خطيرة، كأنها تعني أن أحداً يملك مع الله شيئاً، ومعلوم أن رتبة النبوة لا تنقطع بالموت، إن التوسل بالرسول ﷺ توسل بنبوته، وحياته المباركة وأعماله الصالحة.

والتوسل بالأنبياء والصالحين هو توسل بذوات الأنبياء والصالحين المتصفة بالإيمان بالله تعالى وطاعته.

فالتوسل بالذات لا ينفك عن التوسل بالأعمال الصالحة. فلا ينفي أن يقوم كبير خلاف وخصام بين المسلمين على التوسل بالنبي ﷺ، أو بأحد من الصالحين بعد ما تبين الحق، والله أعلم[1].

مخالفته تَعالَى للحوادَث أو مُغَايَرته للمَخلوقات

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ البصير.﴾[2].

وكل ما خطر ببالك في حق الله تعالى فالله تعالى بخلاف ذلك، الله سبحانه مغاير لمخلوقاته، فوجوده سبحانه ليس كوجود الخلق، ووحدانية الله تعالى، وكذا بقاؤه، وقدرته، وعلمه، وإرادته سبحانه، لا يشبه الله تعالى أحداً من خلقه في شيء. مما ذكر، ولا يشبهه سبحانه شيء من خلقه في شيء مما ذُكر.

وكل ما أوهم مشابهة الله تعالى بشيء من خلقه، أو مشابهة شيء من خلقه له، فلا بد من ترك التعرض لتأويلها، مع القطع واليقين باستحالة

---

(١) انظر «مصباح الزجاجة في فوائد قضاء الحاجة» للمحدث عبد الله الصديق الغماري فقد أطنب في سرد طرق الحديث وشرحه.

(٢) الشورى: ١١.

ظواهرها على الله تعالى[1].

ولقد كان السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم يكرهون الخوض في المتشابهات مثل صفات الله تعالى، ويعاقبون من يخوض طلباً للشبهة، أو تحريكاً لقلوب المنافقين والملاحدة للجرأة على الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الذي أَنْزَلَ عَلَيكَ الكِتَابَ مِنهُ آيـاتٌ مُحْكَمـاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ فأمَّا الذيْنَ في قُلُوبهـمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابتِغَاءَ تَأْوِيْلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا الله﴾[2].

قال أبو بكر الأنباري: وقد كان الأئمة من السلف يعاقبون من يسأل عن تفسير الحروف المشكلات في القرآن، لأن السائل إن كان يسعى بسؤاله تخليد البدعة، وإثارة الفتنة، فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزيز، وإن لم يكن ذلك مقصده، فقد استحق العتب بما اجترم من الذنب، إذ أوجد للمنافقين الملحدين في ذلك الوقت سبيلاً إلى أن يقصدوا ضعفة المسلمين بالتشكيك والتضليل في تحريف القرآن عن مناهج التنزيل، وحقائق التأويل. فمن ذلك ما حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، أنبأنا سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن يزيد بن حازم، عن سليمان بن يسار، أن صَبيغ بن عِسْل قدم المدينة، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، وعن أشياء، فبلغ ذلك عمر رضي الله تعالى عنه، فبعث إليه عمر، فأحضره، وقد أعدّ له عراجين من عراجين النخل، فلما حضر، قال له عمر: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صَبيغ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤ - ١٤).
(٢) آل عمران: ٧.

وأنا عبد الله عمر، ثم قام إليه، فضرب رأسه بعرجون، فشجه، ثم تابع ضربه، حتى سال دمه على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي. . ثم إن الله تعالى ألهمه التوبة، وقذفها في قلبه، فتاب، وحسنت توبته[1].

ذات الله تعالى وحقيقته مخالفة لذوات وحقائق المخلوقات كلها، فذات الله تعالى واجبة الوجود، لا ابتداء لوجودها، ولا انتهاء لها، ليست ذاته سبحانه مؤلفة من أبعاض وأجزاء كذوات المخلوقات كلها، لا يحتاج إلى حيز ومكان، لا تعرض له الجهات الست مثل سواه سبحانه مما خلق، ولا يفتقر إلى شيء مما خلق من هواء وماء وطعام، كما يحتاج إليه كل ما خلق سبحانه، ولو شابه سبحانه خلقه في شيء من ذلك، لكان مماثلاً وموافقاً لشيء من خلقه، وذلك محال، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البصير﴾[2].

صفات الله تعالى مخالفة لصفات المخلوقات التي خلقها فصفة السمع والبصر من صفاته سبحانه، لا تشبه شيئاً من صفتي السمع والبصر في خلقه.

فخلقه يسمعون بآذان جعل الله فيها قابلية تبلّغ الأصوات عن طريق الهواء، وقرب المسافة، والانتباه، والخلوّ من الأمراض، وأمثال ذلك، جعل لها تلك القابلية مع توفر تلك الشروط، ومثله يقال في البصر وأمثاله، ولا نعلم كيفية اتصاف الله تعالى بصفتي السمع والبصر، ذلك لأن ذاته

---

(١) القرطبي. ٤ ـ ١٥.

(٢) الشورى: ١١.

سبحانه مجهولة التحديد لدى الخلق، فصفاته كذلك: وإن كنا نقطع أنهما ليسا من جنس صفات الخلق.

قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: (وهو شيء لا كالأشياء، ومعنى الشيء إثباته بلا جسم، ولا جوهر، ولا عرض، ولا حَدّ، له، ولا ضد له، ولا ندَّ له، ولا مثل له[1] وله يد ووجه ونفس، فما ذكره الله تعالى في القرآن مع ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات، بلا كيف، ولا يقال: إن يده قدرته، أو نعمته، لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفته بلا كيف[2] وغضبه ورضاه صفتان من صفاته تعالى بلا كيـف).

القول في المَتَشَابَهات

ورد في القرآن الكريم والسنّة الشريفة ما يوهم مشابهة الله تعالى لخلقه في الذهاب، والمجيء، والجهة، والمعية، والاستواء، والنزول، وغير ذلك فكيف التوفيق بين إثبات ظواهر ذلك، وبين قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْـرُ؟﴾.

الجـواب: إن التوفيق هو في حمل المتشابه من النصوص على

---

(١) لأن الحدّ من طول، وقصر، واحتواء، وجهة، من خواص الأجسام لا ضد له تعالى أي لا منازع له سبحانه في ملكه، ولا شبيه ولا كفؤ له ولا مماثل، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصيـر).

(٢) أي بلا معرفة كيفية لعجزنا عن معرفة كنه صفاته، فضلا عن معرفة كنه ذاتـه. (الفقه الأكبر» بشرح علي القاري.

المحكم منها، وتفويض المعنى الحقيقي إلى الله تعالى، مع التنزيه عن مماثلته سبحانه للخلق، قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى بعد كلام: اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف ـ أعني مذهب الصحابة والتابعين ـ وها أنا أورد بيانه وبيان برهانه، فأقول: حقيقة مذهب السلف ـ وهو الحق عندنا ـ أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث ـ المتشابهة ـ من عوام الخلق يجب عليه سبعة أمـور:

التقديس، والتصديق، ثم الاعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الإمساك، ثم الكف، ثم التسليم لأهل المعرفـة.

١ ــ أما التقديس: فأعني به تنزيه الرب سبحانه وتعالى عن الجسمية وتوابعها.

٢ ــ وأما التصديق: فهو الإيمان بما قاله ﷺ، وأن ما ذكره حق وهو فيما قاله صادق، وأنه حق على الوجه الذي قاله وأراده.

٣ ــ وأما الاعتراف بالعجز: فهو أن يقرَّ بأن معرفة مراده ليست على قدر طاقته، وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته.

٤ ــ وأما السكوت: فأن لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه، ويعلم أن سؤاله عنه بدعة، وأنه في خوضه مخاطر بدينه، وأنه يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر.

٥ ــ وأما الإمساك: فأن لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى، والزيادة فيه والنقصان منه[1]، والجمع والتفريق، بل

---

(١) فلا تترجم كلمة استوى في لغة أخرى إلى معنى استقر، ولا يحول مثل (الرحمن على العرش استوى)، فيقول: إنه سبحانه يستوي على العرش، أو هو مستو، لأن =

لا ينطق إلا بذلك، وعلى ذلك الوجه من الإيراد والتعريف والتصريف.

٦ ــ وأما الكف: فأن يكف باطنه عن البحث عنه والتفكير فيه.

٧ ــ وأما التسليم لأهله: فأن لا يعتقد أن ذلك إن خفي عليه لعجزه فقد خفي على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء أو على الصديقين والأولياء.

فهذه سبع وظائف اعتقد كافة السلفة وجوبها على كل العوام لا ينبغي أن يُظن بالسلف الخلاف في شيء منها. اهـ.

فإن قيل: إن الله تعالى قد أثبت الفوقية لنفسه على خلقه، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ القاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ﴾(١)، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾(٢).

الجواب: إن المراد هو فوقية رتبة ومكانة، لا فوقية جهة ومكانة، لقد قال فرعون فيما حكى الله عنه: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُم قَاهِرُونَ﴾(٣)، ولا يعني قطعاً أنهم ادعوا فوقية مكان وَجِهَة على موسى عليه السلام وقومه.

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى وهو يشرح الوظيفة الأولى وهي التقديس التي سردناها آنفاً: إذا سمع لفظ (فوق) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾(٤)،

= ذلك مما لم يرد به نص، فانظر إلى الحيطة والأدب مع الله تعالى في هذا الشأن، من هذا العَلَم، رحمه الله تعالى.

(١) الأنعام: ١٨.

(٢) الفرقان: ١.

(٣) الأعراف: ١٢٧.

(٤) النحل: ٥٠.

فليعلم أن الفوق اسم مشترك يطلق لمعنيين: أحدهما نسبة جسم إلى جسم، بأن يكون أحدهما أعلى والآخر أسفل، يعني أن الأعلى من جانب رأس الأسفل، وقد يطلق لفوقية الرتبة، وبهذا المعنى يقال: الخليفة فوق السلطان، والسلطان فوق الوزير، وكما يقال العلم فوق العمل، والصباغة فوق الدباغة.

و(الأول) يستدعي جسماً ينسب إلى جسم و(الثاني) لا يستدعيه. فليعتقد المؤمن قطعاً أن الأول غير مراد، وأنه على الله تعالى محال فإنه من لوازم الأجسام أو لوازم أعراض الأجسام.

وإذا عرف نفي هذا المحال فلا عليه إن لم يعرف أنه لماذا أطلق؟ وماذا أريد، وقد خفف الله عنه هذه الكلفة، وأمثلة هذا كثيرة فقس على ما ذكرناه ما لم نذكره[1].

وإن قال قائل: ما الذي دعا رسول الله ﷺ إلى إطلاق هذه الألفاظ الموهمة مع الاستغناء عنها؟ أكان لا يدري أنه يوهم التشبيه، ويغلط الخلق، ويسوقهم إلى اعتقاد الباطل في ذات الله تعالى وصفاته، وحاشا منصب النبوة أن يخفى عليه ذلك، أو عرف لكن لم يبال بجهل الجهال، وضلالة الضلال، وهذا أبعد وأشنع لأنه بعث شارحاً لا مبهماً ملبساً ملغزاً، وهذا إشكال له وقع في القلوب، حتى جر بعض الخلق إلى سوء الاعتقاد فيه، فقالوا: لو كان نبياً لعرف الله، ولو عرفه لما وصفه بما يستحيل عليه

---

(١) انظر «أضواء البيان» للشيخ محمد أمين الشنقيطي رحمه الله تعالى: ٢ ـ ٢٧٣، و«كبرى اليقينات» للشيخ الدكتور سعيد رمضان ١٨، و«شرح جوهرة التوحيد» للشيخ محمد أديب الكيلاني وزميله ص ١٩٢، و«أركان الإيمان» ص ٣٢، للمؤلف.

في ذاته وصفاته، ومَالت طائفة أخرى إلى اعتقاد الظواهر، وقالوا: لو لم يكن حقاً لما ذكره كذلك مطلقاً، ولعدل عنها إلى غيرها أو قرنها بما يزيل الإبهام عنها، فما سبيل حلِّ هذا الإشكال العظيم..؟!

الجـــواب : على ما قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: الجواب أن هذا الإشكال منحلّ عند أهل البصيرة. وبيانه أن هذه الكلمات ما جمعها رسول الله ﷺ دفعة واحدة، وما ذكرها، وإنما جمعها المشبِّه، وقد بينا أن لجمعها من التأثير في الإبهام والتلبيس على الأفهام ما ليس لآحادها المتفرقة، وإنما هي كلمات لهج بها عليه السلام في جميع عمره في أوقات متباعدة، وإذا اقتصر منها على ما في القرآن والأخبار المتواترة، رجعت إلى كلمات يسيرة معدودة وإن أُضيفت إليها الأخبار الصحيحة فهي أيضاً قليلة، وإنما أكثرت الروايات الشاذة الضعيفة التي لا يجوز التعويل عليها، ثم ما تواتر منها إن صح نقلها عن عدول فهي كلمات آحاد، وما ذكر ﷺ كلمة منها إلا مع قرائن وإشارات يزول معها إيهام التشبيه، وقد أدركها الحاضرون المشاهدون، فإذا نقل الألفاظ مجردة عن تلك القرائن ظهر الإيهام.

وأعظم القرائن في زوال الإيهام المعرفة السابقة بتقديس الله تعالى عن قبول الظواهر، ومن سبقت معرفته كانت تلك المعرفة ذخيرة له، راسخة في نفسه، مقارنة لكل ما يسمع، فينمحق معه الإيهام انمحاقاً لا شك فيه، ويعرف هذا بأمثلة، أنه ﷺ سمى الكعبة بيت الله تعالى، وإطلاق هذا يوهم عند الصبيان، وعند من تقرب درجتهم منهم أن الكعبة وطنه ومثواه.

لكن العوام الذين اعتقدوا أنه في السماء، وأن استقراره على العرش ينمحق في حقهم هذا الإيهام على وجه لا يشكون فيه.

فإن قيل لهم ما الذي دعا رسول الله ﷺ إلى إطلاق هذا اللفظ الموهم المخيل إلى السامع أن الكعبة مسكنه، لبادروا بأجمعهم، وقالوا: هذا إنما يوهم في حق الصبيان والحمقى، أما من تكرر على سمعه أن الله مستقر على عرشه، فلا يشك عند سماع هذا اللفظ أنه ليس المراد به أن البيت مسكنه ومأواه بل يعلم على البديهة أن المراد بهذه الإضافة تشريف البيت أو معنى سواه غير ما وضع له لفظ البيت المضاف إلى ربه وساكنه.

أليس كان اعتقاده أنه على العرش قرينة أفادته علماً قطعياً بأنه ما أريد بكون الكعبة بيته أو مأواه، وأن هذا إنما يوهم في حق من لم يسبق إلى هذه العقيدة، فكذلك رسول الله ﷺ خاطب بهذه الألفاظ جماعة سبقوا إلى علم التقديس، ونفي التشبيه، وأنه منزه عن الجسمية وعوارضها، وكان ذلك قرينة قطعية مزيلة للإيهام، لا يبقى معه شك، وإن جاز أن يبقى لبعضهم تردد في تأويله، وتعين المراد به من جملة ما يحتمله اللفظ، ويليق بجلال الله تعالى.... الخ اهـ[1].

قال الراغب في «مفردات القرآن»: وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة، وليس هو كما تذهب إليه أوهام العامة، فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له، تعالى الله عن ذلك، وليس هو كما قال قوم: إنه الفلك الأعلى والكرسي، فلك الكواكب. روى البيهقي في

---

(١) «إلجام العوام» للغزالي رحمه الله تعالى ص ٢٤٠، ولعل أفضل مرجع للكلام على صفات الله تعالى من خلال النصوص والآثار كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي وهو مطبوع - فعليك به تغنم.

«الأسماء والصفات» بسنده عن عبد الله بن وهب أنه قال: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى) كيف استواؤه؟ فاطرق مالك، وأخذته الرحضاء، ثم رفع رأسه فقال: (الرحمن على العرش استوى) كما وصف نفسه، ولا يقال له كيف، وكيف عنه مرفوع وأنت رجل سوء وصاحب بدعة، أخرجوه، فأُخرج الرجل. وفي رواية يحيى بن يحيى. . ثم قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. وقال البغوي: أهل السنّة يقولون: الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل: وذكر حديث مالك بن أنس مع الرجل، وقد تقدم[1].

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ يعني تعالى ذكره بقوله نفسه يقول: والله القاهر فوق عباده، ويعني بقوله القاهر المذلل المستعبد خلقه، العالي عليهم، وإنما قال: فَوق عباده، لأنه وصف نفسه بقهره إياهم ومن صفة كل قاهرِ شيءٍ أن يكون مستعلياً عليه.

قال البيهقي: تكرر ذكر الوجه في القرآن والسنّة الصحيحة. وهو في بعضها صفة ذات كقوله: (إلاّ رداء الكبرياء على وجهه) وهو في «صحيح البخاري» عن أبي موسى. وفي بعضها بمعنى من أجل كقوله: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾. وفي بعضها بمعنى الرضا كقوله: ﴿يريدون وجهه﴾ ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ وليس المراد الجارحة جزماً. اهـ «فتح الباري» ١٢ : ٣٨٩.

---

(١) اتحاف الكائنات للشيخ محمود محمد خطاب السبكي ص : ٤٥.

وقال ابن حجر في قوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾، والمراد بالوجه الذات وتوجيهه أنه عبر عن الجملة بأشهر ما فيها، ويحتمل أن يراد بالوجه ما يعمل لأجل الله أو الجاه، وقيل: الاستثناء منقطع، والتقدير: لكن هو سبحانه لا يهلك، والشيء يساوي الموجود لغة وعرفاً: «الفتح» ١٢ : ٤٠٢.

وقال ابن دقيق العيد: إن كان التأويل من المجاز البيّن الشائع فالحق سلوكه من غير توقف، أو من اعجاز البيعد الشاذ فالحق تركه، وإن استوى الأمران فالاختلاف في جوازه وعدمه مسألة اجتهادية، والأمر ليس بالخطر بالنسبة للفريقين[١]، وقال نُعَيم بن حماد: من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر[٢]. وقال ابن المُنَيِّر في شرح حديث البخاري: (إن الله لا يخفى عليكم إن الله ليس بأعور وأشار بيده إلى عينه)، وقد سئلت هل يجوز لقارىء هذا الحديث، أن يصنع كما صنع رسول الله ﷺ فأجبت وبالله التوفيق: إنه إن حضر عنده من يوافقه على معتقده وكان يعتقد تنزيه الله تعالى عن صفات الحدوث وأراد التأسي محضاً جاز، والأولى به الترك خشية أن يدخل على من يراه شبهة التشبيه تعالى الله عن ذلك[٣]. وقال ابن حجر في التعليق على قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وقال المجسمة: معناه الاستقرار، وهو قول فاسد، لأن الاستقرار من صفات الأجسام، ويلزم منه الحلول والتناهي وهو محال في حق الله تعالى وتعالى بالمخلوقات.

---

(١) «اتحاف الكائنات»

(٢) المصدر نفسه ٤٥،

(٣) الفتح ١٢ : ٣٩٠.

● وقال الكوثري في تعليقه على «السيف الصقيل»: ولم يقع ذكر الجهة في حق الله في كتاب الله ولا في سنّة رسوله ولا في لفظ صحابي أو تابعي ولا في كلام أحد ممن تكلم في ذات الله وصفاته من الفرق سوى اقحاح المجسمة، وأتحدى من يدعي خلاف ذلك أن يسند هذا اللفظ إلى أحد منهم بسند صحيح فلن يجد إلى ذلك سبيلاً، فضلاً عن أن يتمكن من إسناده إلى الجمهور بأسانيد صحيحة.

● وما أحسنَ قول شارحي «الجوهرة» حول المتشابه من الصفات: والخلاصة أن من لم يصرف اللفظ المتشابه ـ آية كان أو حديثاً ـ عن ظاهره الموهم للتشبيه أو المحال فقد ضل، ومن فسره تفسيراً بعيداً عن الحجة والبرهان، قائماً على الزيغ والبهتان فقد ضل، كالباطنية، وكل هؤلاء يقال فيهم: إنهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، أما من يصرف المتشابه عن ظاهره بالحجة القاطعة، لا طلباً للفتنة، بل منعاً لها، وتثبيتاً للناس، على المعروف من دينهم، ورداً لهم إلى محكمات الكتاب القائمة، فأولئك هم هادون مهديون حقاً، وعلى ذلك درج سلف الأمة وخلفها وأئمتها وعلماؤ ها.

وانظر لزاماً (دفع شبه التشبيه) لخطيب بغداد وواعظها أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي رحمه الله تعالى.

حِكْمَةَ الله تَعَالَى

الحكمة: هي وضع الأمر موضعه، فهداية المهتدي، وإثابته حكمة، وإضلال الضال وعقوبته حكمة.

لقد وصف الله تعالى نفسه بالحكمة، فقال سبحانه: ﴿والله عَزِيزٌ حَكِيم﴾، ولنذكر هنا بعض مظاهر حكمة الله تعالى في خلقه:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في بيان حكمة الله في خلقه الإنسان: فأعد الآن النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية، من الذي دبرك بألطف التدبيرات، وأنت جنين في بطن أمك، في موضع لا يد تنالك، ولا بصر يدركك، ولا حيلة لك في التماس الغذاء، ولا في دفع الضرر، فمن الذي أجرى عليك من دم الأم ما يغذوك، كما يغذو الماء النبات، وقلب لك الدم لبناً، ولم يزل يغذيك في أضيق المواضع، وأبعدها من حيلة التكسب والطلب، حتى إذا كمل خلقك، واستحكم، وقوي أديمك على مباشرة الهواء، وبصرك على ملاقاة الضياء، وصلبت عظامك على مباشرة الأيدي والتقلب على الغبراء، هاج الطلق بأمك، فأزعجك إلى الخروج إيما إزعاج إلى عالم الابتلاء، فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط، ولم يشتمل عليك فيما بعد ما بين ذلك القبول والاشتمال حين وضعت نطفة، وبين هذا الدفع والطرد والإخراج، وكان مبتهجاً بحملك، فأصبح يستغيث، ويعج إلى ربك من ثقلك، فمن الذي فتح لك بابه حتى ولجت، ثم ضمه عليك حتى حفظت، وكملت، ثم فتح ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه كلمح البصر، لم يخنقك ضيقه، ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه، فلو تأملت حالك في دخولك من ذلك الباب وخروجك منه، لذهب بك العجب كل مذهب، فمن الذي أوحى إليه أن يتضايق عليك، وأنت نطفة حتى لا تفسد هناك، وأوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليماً، إلى أن خرجت فريداً وحيداً ضعيفاً، لا قشرة ولا لباس، ولا متاع ولا مال، أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم،

فصرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذى به في بطن أمك إلى خزانتين معلقتين على صدرها، تحمل غذاءك على صدرها، كما حملتك في بطنها، ثم ساقه إلى تينك الخزانتين، ألطف سوق على مجار وطرق قد تهيأت له، فلا يزال واقفاً في طرقه ومجاريه، حتى تستوفي ما في الخزانة، فيجري وينساق إليك، فهو بثر لا تنقطع مادتها، ولا تفسد طرقها، يسوقها إليك في طرق لا يهتدي إليها الطواف، ولا يسلكها الرجال فمن رقته لك وصفاه، وأطاب مطعمه، وحسن لونه، وأحكم طبخه أعدل إحكام لا بالحار المؤذي، ولا بالبارد الرديء، ولا المر، ولا المالح ولا الكريه الرائحة. . . الخ[1].

جعل الله تعالى رضاب الفم عذباً لا مرارة فيه، وجعل سبحانه ماء العين مراً لا حلاوة فيه، فلو جعل سبحانه رضاب الفم مالحاً وماء العين حلواً، لما طابت لنا الطيبات، ولفسدت رائحة ماء العين فلا يدنو أحد من أحد.

وجعل الله تعالى الأكسجين حارقاً، والهيدروجين خانقاً ولما جمع بينهما جعلهما ماءً، وجعل منه كل شيء حي.

قضى الله تعالى بحكمته في تكوُّن المطر أن يكون تبخراً من الماء المالح يُفقد الماء ملوحته، ثم يصاعد البخار في السماء ويصاعد، حتى يبلغ درجة من البرودة تعيد البخار ماءً، ثم تجمع الرياح سحب الأمطار، وإذ أذن الله تعالى بنزول الأمطار في مكان انزل منها حبات ناعمة دقيقة

---

(١) «مفتاح دار السعادة» ١ ـ ٢٥٦، وحبذا قراءة الكتاب كله فقد أورد ٣٠٤ من الحكم المختلفة الدالة على حكمة الله تعالى وتمام فضله وإحسانه.

متفرقة على أوقات وأماكن متعددة، ولو نزل مطر السنة في يوم، أو نزل مجموع حباته في قرية لأهلك الحرث والنسل، لكنه لطف الله تعالى القائل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ.﴾[1].

● تبلغ سرعة الأرض في دورتها اليومية حول محورها (١٠٠٠) ميل في الساعة عند خط الاستواء، فلو كانت سرعة دورتها (١٠٠) ميل في السعة لكان طول الليل والنهار عشرة أضعاف طولهما الآن، ولاستطاعت حرارة الشمس أن تحرق نباتنا في النهار الطويل، وكذلك استطاع الليل لغياب الشمس أن يجمد نباتنا الذي ربما بقي حياً بعد وهج الشمس الطويل ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً[2].﴾[3].

مَا يَهدِم الإِيمانَ بالله تَعَالَىٰ

● **الإيمان**: هو التصديق بكل ما جاء به رسول الله ﷺ مما عُلم من الدين بالضرورة. أي علم أنه من الدين بالدليل القطعي الواضح والذي ثبت به بداهة ما يقرره من أحكام.

● والكفر ـ والردة كفر هو: إنكار جميع أو بعض ما جاء به رسول الله ﷺ على الصفة التي ذكرتُ.

كل ما يؤدي إلى الكفر كفر، سواء كان بالاعتقاد، أو القول، أو العمل.

---

(١) المؤمنون: ١٨.

(٢) الرعـــد: ٣.

(٣) «آيات الخالق الكونية» والنفسية للأستاذ رشدي العابري.

● لا نكفِّر أحداً من أهل القبلة بفعل ذنب، لاعتقاد باطل، أو فعل ما يدل على الكفر،[1] يهدم الإيمان بالله تعالى الارتداد عن الإيمان به سبحانه، والخروج عليه مع العلم والاختبار دون القهر والإكراه.

ويتحقق الارتداد عن الإيمان بالله تعالى والخروج عن الإسلام بأحد أمور ثلاثة، بالاعتقاد، والقول، والعمل.

١) الارتداد بالاعتقاد : أ ــ أن ينكر ـ معاذ الله تعالى ـ وجود الله سبحانه، أو يشرك به غيره من زوجة أو ولد، أو معاون له مكافيء له سبحانه، أو ينكر صفة من صفاته سبحانه، أو اسم من أسمائه ثابت بالتواتر، أو يرى أن مخلوقاً له صفات الخالق سبحانه من الإحياء والإماتة، والقدر على فعل ما يريد، والغنى المطلق، والبقاء، وأمثالها.

● أن ينكر كون القرآن الكريم من عند الله تعالى، أو يرى أن القرآن الكريم قد أتاه الباطل، والخطأ، أو يأتيه، أو يرى عدم التزام الصدق في بعض قصص القرآن الكريم وأخباره بعد قوله سبحانه: ﴿ما كان حديثاً يُفترى﴾، أو اتهام السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها في عرضها، وقد برأها الله تعالى بقوله: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾، أو يزعم أن القرآن الذي بين أيدي المسلمين ليس هو كل الذي أنزل على رسولنا محمد ﷺ.

أن يعتقد في الله تعالى صفة من صفات النقص، كالظلم، والمحاباة، وجهل شيء جرى أو يجري في خلقه ومن خلقه، والعجز والتعب، والحاجة إلى شيء.

---

(١) يأتي لهذا زيادة بيان بإذن الله تعالى.

أو يرى أن الله تعالى هو هذا الكون كله، وليس ذاتاً موصوفة بصفات الكمال، أو يزعم أنه غيب، سبحانه، أو أنه يحل في جسم أحد من خلقه، أو يتحد معه، معاذ الله.

ب ــ إنكار وجود الملائكة الكرام، أو نسبتهم إلى الأنوثة، وأنهم بنات الله، تعالى الله أن يتخذ صاحبة أو ولداً وهو الذي خلق كل شيء، وصفهم بأنهم قوى الطبيعة، بغضهم أو بغض واحد منهم، واعتقد أن جبريــل عليه السلام خان الأمانة في تبليغ الوحي إلى رسولنا محمد ﷺ بعد قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمين عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

ج: إنكار واحد من الكتب السماوية وهي التوراة. والزبور، والإنجيل، والقرآن، وصحف سيدنا إبراهيم، وصحف سيدنا موسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، واعتقاد أن القرآن الكريم قد عرض له التبديل، والتحريف، كما وقع في التوراة والإنجيل، فضلاً عن الضياع كما وقع في الزبور، وصحف إبراهيم وموسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام.

د ــ إنكار النبــوة ـ معاذ الله ـ، أو إنكار نبوة أحد ممن ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم أو إنكار نبوة أي أحد غيرهم، بعد قوله تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُم عَلَيْكَ من قبل وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهمَ عَلَيْكَ﴾. بغض نبي من الأنبياء أو انتقاصه معاذ الله ووصفه بما برأه الله تعالى منه.

إنكار عموم رسالة نبينا محمد ﷺ وشمولها، وختمها للرسالات، وختم الله به النبوات، إنكار المعجزات المتواترة للأنبياء ونبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام أو تأويلها بما يخرجها عن حقيقتها دون دليل، وإنكار ما أخبر به رسول الله ﷺ مما هو متواتر، أو ثبت ذلك في القرآن الكريم،

كالإسراء والمعراج، والدخان، وظهور الدابة ونزول عيسى عليه السلام من السماء آخر الزمان.

هـ ـ إنكار الحيـاة الآخـرة، وأن الله تعالى يبدل الأرض غير الأرض، وحشر الأجساد والبعث والحساب، وإنكار خلود الجنة على اهلها، والنار على الدين هم أهلها.

اعتقاد أن نعيم الجنات ولذاتها تمثيل وليس واقعاً، وأن عذاب النار وشدتها تمثيل كذلك، معاذ الله.

و ـ إنكار القضاء والقدر، وظن أن الله تعالى لا يعلم الأشياء قبل وقوعها، وأن الأمر أُنُف جديد مما يفعله العباد، وليس مما قدر الله وقضى منذ الأزل. بعد قوله تعالى: ﴿واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُـون﴾، وقوله ﷺ كما في «الصحيح»: (اعملوا فكل مُيَسّـر لما خُلِقَ لـه).

ز ـ استحلال ماثبت حرمته قطعاً من الزنى واللواطة والربا، والقمار، والخمر، والرشوة، والظلم، وقتل المسلم بغير الحق الذي ورد في الكتاب والسنّة.

استحلال أخذ أموال الناس بالباطل، وتقسيم مواريث الأموال على غير ما حكم الله تعالى به بعد قوله تعالى: في القرابة الواحدة كالبنوة والأخوة: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾.

تمني الكفر لنفسه، أو محبته لغيـره ورضاه به، معاذ الله.

* . * . *

٢) الارتداد بالقـــول:

تحديثه الناس: أو كتابته أو إشارته: بأي معنى من معاني كفر

الاعتقاد، كأن يقول هو لا يعتقد بحشر الأجساد في يوم لا ريب فيه، أو يسخر باسم من أسماء الله تعالى، أو يصفه بما لا يليق به سبحانه من الصفات كالظلم، والمحاباة، أو محبة الظلم ومحبة الظالمين والكافرين.

ومثله النطق بكلمة الكفر استخفافاً بالإسلام وقدره، أو قوله هو مع الناس فإن كانوا كفاراً فهو مثلهم، وإن كانوا مسلمين فهو مثلهم.

إذا أشهد الله تعالى على أمر هو فيه كاذب وهو يعلم ذلك، أو افترى على الله تعالى ما لم يقله وهو يعلم ذلك، أو على رسول الله ﷺ وهو يعلم ذلك أيضاً. ومثله الاستخفاف بذكر الله تعالى وعبادته وقوله عنها إنها لا تسمن ولا تغني من جوع، أو زعم أنه لا يضر مع الإيمان المعصية، أو جاهر بالمعصية من ترك الصلاة والصيام على وجه التحدي والمعاداة للمسلمين، أو فضّل الكفر على الإسلام، أو قال: الكفار خير من المسلمين، إن أراد أن دينهم خير من الإسلام.

ومثله إذا قال معاذ الله: إن الإسلام لا يصلح للحياة، سواء قال ذلك على زعم أنه لا يناسب زمانه، أو أنه ناقص لا يفي بحاجات الناس، أو أن أحكامه لا تُصلح الناس بعد أن تفاقمت فيهم الشرور، وفسدت الأخلاق وخربت الضمائر.

ومثله إذا قال: إنه يؤمن ببعض الإسلام دون بعض، فهو يؤمن بأنه دين الله تعالى وأنه يجب العيش به من حيث الإيمان بالله تعالى وطاعته، وبر الوالدين وصلة الأرحام، ولكن لا يلزمه أن يقبل بنظام الزكاة، ونظام البيوع والمعاملات، وموالاة المسلمين ومعاداة الكافرين، والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وأهل دينه على قدر الإمكان، لأن مثل هذه الأحكام تخالف ما عليه الكافرون أهل التقدم والمدنية، الذين

هم قدوة في شؤون الدنيا. بعد قوله تعالى في أهل الكتاب: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آية ٨٥ من سورة البقرة]، وقوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [آية ٣ من سورة المائدة].

وكذلك الاستخفاف بكتاب الله تعالى، أو حكم من أحكامه، وإهانة كتاب الله تعالى في آياته وسوره وإنكار شيء منه، وإنكار السنّة الشريفة أصلاً، وردّ ما استفاض منها دون علم من دليل معارض أو ناسخ بعد قوله ﷺ مما رواه أبو داود وغيره «. . . ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»، وما أوتيه ﷺ وَحْي، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾.

وإنكار شيء من الفرائض الثابتة، أو الاستهزاء بها، كأن يقول مستهزئاً بالمصلين: ما يفعل هؤلاء؟ أو يقول في الصائمين: لماذا يصوم هؤلاء؟ أو يقول هو كافر، أو هو يشك في كفر من كفر بالإسلام، وأن الله تعالى يجمع المسلمين والكافرين بالإسلام في الجنة جميعاً، معاذ الله.

وإنكار حجاب المرأة، ووصفه بما يشعر بتحقير شأنه أو الاستهزاء به، فضلاً عن نزع الحجاب ومحاربته، ومحاربة أهلـه.

٣) الارتـــداد بالعمـــل:

أن يأتي بعمل يأتي به الكافر على سبيل العبادة يفعل ذلك قصداً، دون ضرورة أو عذر، كالسجود للصنم، والتصليب ووضعه على الصدر،

والصلاة دون وضوء، وإلى غير جهة القبلة قصداً دون ضرورة وعذر.

ومثله الصلاة بصلاة اليهود والنصارى محبة لهم وتوددا إليهم فضلاً عن عباد الأوثان، وموالاة الكافرين ضد المسلمين والتودد إليهم والرضا بحالهم، بعد قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمَ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهم أو أَبْنَاءَهم أَوْ إِخْوانَهم أَوْ عَشِيرَتَهم أولئكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ الإِيمانُ وأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فيها رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أولئكَ حِزْبُ اللهِ ألا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الآية الأخيرة من سورة المجادلة].

والجلوس مع الذين يستهزئون بالإسلام أو حكم من أحكامه، ومشاركتهم في ذلك، أو الرضا به ـ معاذ الله ـ بعد قول الله تعالى: ﴿وإِذَا نادَيْتم إلى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوها هُزُوا وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهم قَومٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الآية ٥٨ من سورة المائدة].

ومثله الزيادة على كتاب الله تعالى أو النقص قصداً، وعن علم، أو تمزيق المصحف وإلقائه أرضاً، أو في القاذورات على حالة التحقير والغضب منه ومن أهله، أو هدم المسجد، وتنجيسه كذلك دون عذر أو ضرورة.

قال الحُمَيدي: كنت بمصر فحدث محمد بن إدريس الشافعيٌ رحمه الله تعالى بحديث عن رسول الله ﷺ، فقال له رجل: يا أبا عبد الله أتأخذ بهذا؟ فقال أرأيتني خرجت من كنيسة، ترى عليّ زناراً حتى لا أقول به[1].

* . * . * . *

---

(١) «مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة» للسيوطي رحمه الله تعالى ص ٧٦.

الارتداد : هو الرجوع عن الإسلام، والخروج على المقطوع من أحكامه سواء كان بالاعتقاد، أو بالقول، أو بالعمل، كما ذكرنا، من عاقل، بالغ مختار.

حكم المرتـــد : قال الفقهاء: يُستتاب المرتد إلى ثلاثة أيام. يكشف له فيها الشبهة التي دفعت المرتد إلى الردة، ويبين له عوارها وبطلانها فيعود إلى الدين، أو ينصف إذا كان قد ظلم لإسلامه، أو يؤمن إذا خاف لإسلامه، وغير ذلك، فإن اطمأن قلبه وعاد إلى الإسلام ونطق بالشهادتين، وأعلن بطلان ما كان عليه من شبهة، فبها ونعمت، فقد كفى شر الكفر والأفكار والحمد لله.

ولكن إذا تبين بعد ثلاثة أيام من المناقشة، وتبيان حقية الإسلام. وإنصافه من الظلم، وإن كان وقع عليه ظلم بإسلامه، وغير ذلك، إذا تبين أنه يؤثر الكفر بالإسلام لمرض في قلبه، أو لدنيا يعيش لها، حينئذ يحكم عليه قضاء الإسلام بالقتل، فيبوء بخسارة الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿. . . وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمَ عَنْ دِيْنِهِ فيمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولئِكَ حَبَطَتْ أَعْمَالُهم في الدُّنيَا والآخـــرةِ وَأُولئِكَ أصحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ﴾ [آية ٢١٧ من سورة البقرة].

آثـــار الـــردة:

١ ــ قتل المرتد من قبل الدولة جزاء وفاقاً على اختياره الكفر على الإيمان.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أنْ لا إله إلاّ الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الزاني والمارق من الدين التارك الجماعة» رواه البخاري وغيره.

٢ ــ تُعدّ زوجته مفارقة له بمجرد ردته وعلمها بذلك، فيحرم عليها أن تأذن له بقربانها لثبوت الحرمة، إذ لا يصح نكاح الكافر للمسلمة بحال من الأحوال ابتداءاً أو بقاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾. فإن عاد إلى الإسلام عادت إليه دون رجعة أو شهود.

٣ ــ يزول ملك المرتد لأمواله زوالاً موقوفاً إلى أن يتبين حاله، لأن حاله متردد بين أن يعود إلى الإسلام فيعود ماله إليه ويعصم من المصادرة، وبين أن يثبت على ردته فيقتل. فإن عاد إلى الإسلام عادت أمواله على أحواله وإن مات على ردته، أو قتل بسبب ردته انتقل ماله عنه، لزوال ملكه قطعاً.

٤ ــ إذا مات المرتد أو قتل بسبب ردته قسم ما جمعه من المال قبل ردته على ورثته من المسلمين، وما جمعه بعد ردته، جعل غنيمة وفيئاً يوضع في بيت مال المسلمين، أعني خزانة الدولة، ليصرف على المصالح العامة.

٥ ــ إذا هرب المرتد ولحق بدار الحرب، وحكم القاضي بردته ولحاقه بدار الحرب عُد ذلك موتاً له، فتعتد امرأته، ويفرق ماله الذي ملكه قبل ردته: كما ذكرنا: على ورثته.

٦ ــ إذا مات المرتد، وقتل، أو لحق بدار الحرب وحكم القاضي بردته ولحاقه، نظر فإن كان عليه ديون قضيت ديونه قبل قسمه بين ورثته، كما هو الشأن في الميت من المسلمين، حفاظاً على حقوق العباد.

٧ ــ تعدّ معاملات المرتد من البيع والشراء وغيرهما من العقود موقوفة إلى أن يتبين حاله، فإن عاد إلى الإسلام نفذت معاملاته وأمضيت، وإلاّ بأن مات على ردته، أو قتل بسببها، أو هرب فقضى بردته، ولحاقه بدار الحرب بطلت عقوده كلها، لأن دمه مهدور، وذلك يوجب نقصاً في الأهلية.

٨ ــ لا تقتل المرأة بسبب ارتدادها لنهيه ﷺ عن قتل النساء، ولكن تحبس حتى تسلم أو تموت في حبسها.

٩ ــ إذا عاد المرتد إلى الإسلام. ثم ارتد ثانياً إلى الكفر معاذ الله، فالأمر كما سبق، يعرض عليه الإسلام، ويناقش في أسباب ردته، ولكنه في هذه الحالة يضرب ويحبس حتى تظهر عليه التوبة، فإن تاب وعاد إلى الإسلام، وإلا قتل على ردته كما سبق.

١٠ ــ إذا مات المرتد أو قُتل لا يعامل كما يعامل موتى المسلمين، فلا يغسل، ولا يكفن كما يُفعل بالمسلم، ولا يُصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، لأنه ليس منهم.

قال في «الهداية»: وكيفية توبة المرتد أن يتبرأ من الأديان كلها سوى الإسلام، ولو تبرأ عما انتقل إليه من دين آخر، كفاه لحصول المقصود[1].

شبهة: قد يقال: إن الله تعالى قال: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ فلماذا يُقتل من كان مسلماً إذا ارتد عنه، أليس هذا إكراهاً على الدين.؟

---

(١) عن القدوري وشرح اللباب عليه : ٣ : ٢٧٥ وما بعد.

كشفهـا: أ ـ إن الذي يرتد عن الدين الخاتم للأديان، والذي أتمه الله تعالى وأكمله ورضيه لعباده ديناً إلى يوم القيامة، قد وقع في أخطر الأمراض وأخبثها، لذا قرر الإسلام معالجة هذا المرض بما يزيله بإزالة أسبابه، فإذا عظم هذا المرض حتى أكل قلب صاحبه، وحرمه الخيرة الطيبة له، فلا بد من قتله ودفع أذاه عن المجتمع، كما يفعل بالعضو المصاب بمرض الأكلة ـ معاذ الله، إنه يبتر، ليعيش باقي الجسم في سلامة إلى حين.

ب ـ لو ترك هذا المرتد على ردته، فلربما يكون سبباً لنقل عدواه من مرضه إلى ضعاف النفوس، ضعاف الهمم، والجهلة، أو بعض الفقراء، فيهلك الآخرين. والعدوى تحصر، ويمنع من نشرها في المجتمع كما هو معروف، حتى يقضي عليها. وأيّ داء أدوى من الردة والإلحاد بعد الإسلام والتوحيد.؟!

ج ـ إن خالق الإنسان ومنزل الإسلام هو الذي قضى بقتل المرتد على التفصيل الذي ذُكر، ولا شك أن الخبر والحكمة والمصلحة التامة يتحقق في هذا الحكم الشرعي لأنه حكم من قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ اللهم بلى.

* . * . * . *

أما آية: ﴿لا إِكْرَاهَ في الدِّين قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصيني، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل

الله فيه ذلك[1].

ومن هنا قال العلماء: إن أهل الكتاب من العرب لا يُكْرَهون على الإسلام، بل يُقَرُّون على دينهم، وتُرعى حقوقهم وتحمى دماؤهم وأموالهم وأعراضهم ما وفوا بالعهد وأعطوا الذمة وما وضع عليهم من الجزيـة.

وكذا شأن أهل الأوثان والمجوس من غير العرب، فضلاً عن أهل الكتاب منهم.

أما مشركوا العرب فلا يُقَرُّون على شركهم بحال، فإما أن يُقتلوا، وإما أن يسلموا، فإنه لمن السفه أن يُترك العرب الذين بعث فيهم الرسول ﷺ والذي يعرفون نسبه وحياته، وأنزل القرآن الكريم على لغتهم، وكانت نواة الإسلام الأولى منهم، وبان لهم بطل عبادة الأوثان والخضوع لحجارة لا تجلب لنفسها نفعاً ولا تدفع ضراً، أن يتركوا وعبادة الأوثان وهم يعلمون حقاً، ويدركون واقعاً وحساً أن الشرك لظلم عظيم، وسفه من الرأي ومجانبة للعقل والفكر السليم.

قال الطحاوي رحمه الله تعالى: تؤخذ الجزية من أهل الكتاب ومن جميع كفار العجم، ولا يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام أو السيف. وعلى هذا حُمل حديث رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاَّ الله فمن قال لا إله إلاَّ الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» رواه البخاري.

---

(١) مختصر ابن كثيـــر، ١ : ٢٣٢.

لا نكفـر المسلم بذنـب:

معتقد أهل السنة والجماعة عدم تكفير المسلم بفعل الذنب أياً كان ذلك الذنب، ولو القتل أو الانتحار، أو ترك العبادات والصلاة. إلا أن يفعل الذنب مستحلاً له، أو بترك الفرض مستهيناً به، أو يفعل فعلاً يدل على الكفر، فيكفر بذلك معاذ الله.

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى في «الفقه الأكبر»: ولا تكفر مسلماً بذنب من الذنوب وإن كانت كبيرة إذا لم يستحلّها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان، ونسميه مؤمناً حقيقة ويجوز أن يكون مؤمناً فاسقاً غير كافر... ولا نقول: إن المؤمن لا تضره الذنوب وإنه لا يدخل النار، ولا إنه يخلد فيها وإن كان فاسقاً بعد أن يخرج من الدنيا مؤمناً.

وقد رأيت لابن قدامة الحنبلي في «المغني» كلاماً جيداً في هذا الباب أنقله على طوله لأنه جمع فأوعى. قال رحمه الله تعالى.

حكم تارك الصلاة كسلاً: الرواية الأولى عند أحمد: يقتل كفرا. والرواية الثانية يُقتل حدّاً مع الحكم بإسلامه كالزاني المحصن. وهذا اختيار أبي عبد الله بن بطة، وأنكر قول من قال: إنه يكفر، وذهب أن المذهب على هذا، لم يجد في المذهب خلافاً فيه.

وهذا قول أكثر الفقهاء، وقول أبي حنيفة، ومالك والشافعي، وروي عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: «يأتي على الناس زمان لا يبقى معهم من الإسلام إلاّ قول لا إله إلا الله فقيل له وما ينفعهم؟ قال: ينجيهم من النار لا أباً لك». وعن والان قال: انتهيت إلى داري فوجدت شاة مذبوحة، فقلت: من ذبحها؟ قالوا: غلامك، قلت: والله إن غلامي لا يصلي،

فقالت النسوة: نحن علمناه فسمى، فرجعت إلى ابن مسعود فسألته عن ذلك فأمرني باكلها. والدليل على هذا قول النبي ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلاّ الله يبتغي بذلك وجه الله» وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ فقال: (ما من عبد قال لا إله إلاّ الله ثم مات على ذلك دخل الجنة)، وعن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل». وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ومن كان في قلبه من الخيرة ما يزن بُرّة». متفق على هذه الأحاديث كلها.

ومثلها كثير. وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خمس صلوات كتبهن الله على العبد في اليوم والليلة فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهم كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة». ولو كان كافراً لم يدخل في المشيئة.

قال الخلال في «جامعه»: ثنا يحيى، ثنا عبد الوهاب، ثنا هشام بن حسان، عن عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبي شميلة أن النبي ﷺ خرج إلى قباء فاستقبله رهط من الأنصار يحملون جنازة على باب، فقال النبي ﷺ: «ما هذا؟ قالوا: مملوك لآل فلان، كان من أمره، قال: «أكان يشهد أن لا إله إلاّ الله»، قالوا: نعم، لكنه كان وكان، فقال: «أما كان يصلي؟»، قالوا: قد كان يصلي ويدع، فقال لهم: «ارجعوا فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه وادفنوه، والذي نفسي بيده لقد كادت الملائكة تحول بيني وبينه»،

وروي بإسناده عن عطاء، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «صلوا على من قال لا إله إلا الله».

ولأن ذلك إجماع المسلمين، فإننا لا نعلم في عصر من الأعصار أحداً من تاركي الصلاة تُرك تغسيله والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين، ولا منع ورثته ميراثه، ولا منع هو ميراث مورثه، ولا فرق بين زوجين لترك الصلاة من أحدهما لكثرة تاركي الصلاة.

ولو كان كافر لثبتت هذه الأحكام كلها، ولا نعلم بين المسلمين خلافاً في أن تارك الصلاة يجب عليه قضاؤ ها، ولو كان مرتداً لم يجب عليه قضاء صلاة ولا صيام.

وأما الأحاديث المتقدمة : التي تدل بظاهرها على كفر تارك الصلاة: فهي على سبيل التغليظ، والتشبيه له بالكفار، لا على الحقيقة، كقوله عليه السلام: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، وقوله: «كفر بالله تبرؤ من النسب، وإن دقّ»، وقوله: «من قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما»، وقوله: «من أتى حائضا أو امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد»، وقال: «من قال: مطرنا بنوء الكواكب فهو كافر بالله مؤمن بالكواكب»، وقوله: «من حلف بغير الله فقد أشرك»، وقوله: «شارب الخمر كعابد وثن».

وأشباه هذا مما أريد به التشديد في الوعيد، وهو أصوب القولين والله أعلم. أ هـ ٢ : ٤٤٥ ـ ٤٤٧ .

قلـــت : لقد كان من أول من خرج على وحدة كلمة المسلمين قوم سُموا بالخوارج، لا يعاب عليهم في صلاة، ولا صيام، ولا قراءة قرآن

وقيام ليل، بل هم في ذلك سابقون لكثير من المسلمين، لكن عيب عليهم، ويعاب سوء ظنهم بالمسلمين إلى حدّ حملهم على تكفير عامة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، بظواهر من النصوص فسرتها الأهواء، والأغترار بالنفوس وسوء الظن بالناس، حتى أنبأ عنهم رسولُ الله ﷺ وخروجهم، فقال: «. . . يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية»، رواه البخاري وغيره.

وليتق الله تعالى أقوامٌ في عصرنا الحاضر، يكفرون المسلمين، ويضللونهم، لمخالفتهم آراءهم، وظواهر ما عندهم من نصوص، بآراء لأولئك أيضاً ونصوص، حتى يقول قائلهم: إن الأفغان أشد خطراً من الشيوعيين، لأن الأفغان أحناف وهم لا يقرءون خلف الإمام في الصلاة. ويقول آخر: إنه يشك في إيمان من لا يرفع يديه مع تكبيرات الانتقال، فضلاً عن فساد صلاته. ويقول ثالث إن مؤلف في «ظلال القرآن» السيد قطب رحمه الله تعالى. ولأنه: في زعمه هو الأهوج: يقول بوحدة الوجود، معاذ الله. ويقول رابع: إن من لا يعتقد عقيدة فلان من العلماء مبتدع، ضال، جهمي معطل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يا قوم! لقد اختلف أصحاب رسول الله ﷺ فيما بينهم في أمور ومسائل، ولم يحل ذلك بينهم وبين التحاب، والتناصر، وجهاد الكافرين معاً، بل إن علياً رضي الله تعالى عنه لم يكفر من قاتله من الخوارج وكفره، بل قال فيهم من الكفر فروا.

وما أحسن كلمة الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى في هذا الباب: نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

إن أمام المسلمين جميعاً عدوُّ المسلمين جميعاً. يكيدهم في قلوبهم، وبيوتهم وثقافتهم، وأموالهم في عقر دارهم، فضلاً عن حدود بلادهم حتى يقضي عليهم أو يخرجهم من دينهم إن استطاع..!

فليتحدوا، وليتآخوا، وليتعاونوا ويتناصروا، وليجاهدوا عدوَّ الله تعالى وعدوَّ المسلمين معاً معاً، ولا عليهم - بعد ذلك - أن لا يحكموا على بعضهم بآرائهم، فلن يسألوا في قبورهم عن آرائهم في الناس، ولكن سيُسألون عن أعمالهم وسلوكهم مع الله تعالى ومع الناس. ﴿وقولوا للناس حسناً﴾.

وفي الحديث الصحيح: «... كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»، رواه البخاري وغيره..

*. *. *. *.